رز بلبن

أخذت تسير في السوق ممسكة بالكثير من الأكياس السمراء والبيضاء، بالإضافة إلى الحقيبة الرئيسية المصنوعة من القماش، التي أخذتها معها وقد امتلأت تمامًا، وفجأه توقفت عند بائعة الخضرة تسألها: "بكام حزمة الجرجير يا حاجة" فأجابت عليها: " الاتنين بجنيه ".. وضعت السيدة الحقائب من يدها، وأخذت تبحث عن جنيه في " البوك القطيفة ".. ووجدت الجنيه، وأعطته للبائعة وأخذت الجرجير، وعادت وحملت الحقائب مرة أخرى وأخذت تسير وتنظر يمينًا ويسارًا، وتستمع إلى الهتافات مثل بائع الخردوات: "قربي يا سعاد وخدي كل الحاجات.. أى حاجة بجنيه وربع"، وبائع الدجاج: "قربي وخدي أربع منابات.. الكيلو أربع توراك"، وبائع الخضار: "والخمسة بعشة يا أوطة" وغيرها الكثير من الهتافات، أما هي فأخذت تفكر في إعداد الغداء، وما الذي ستقدمه وقت العشاء، والابن الأصغر الذي يحب اللعب، والابن الأكبر الذي يريد أن يأخذ درس خصوصي في مادة الكيمياء، وأتت الفكرة إلى عقلها مثل القذيفة أن لديها لبن وأرز، وبإمكانها أن تقوم بعمل "رز بلبن" وتضع عليه القليل من القرفة، وترسل بطبق للجيران الذين سبقوا وأتوا لها بطبق من "المهلبيه".. فكرت في كل شيء.. في الطعام، والأولاد، وحماتها وزوجها، ولكنها لم تفكر في نفسها.

بعد وقتٍ ليس بالقليل وصلت إلى موقف الأتوبيس لكي تركب، فلم تجد معها أي أموال وقد كادت الأكياس أن تقطع يدها، فتنهدت تنهيده

أوشكت أن تخرج روحها وقالت: "لسه همشي محطتين!".. وضعت الأكياس على الأرض لتريح يدها، وقررت أن تذهب إلى بيتها سيرًا على الأقدام، حملت الأكياس مره أخرى وأخذت تسير في الكثير من المنحنيات والتقاطعات كي تختصر على نفسها الطريق، وتذكرت تلك الشوارع التي كانت تسير فيها هي وحبيبها في ذلك الوقت الذي أصبح زوجها، وتذكرت عندما كان يمسك يدها ويسيرا معًا وكلًا منهما يخفق قلبه بشده، ويكاد يخرج من ضلوعه من كثرة الفرحة.

وأثناء سيرها والأكياس بيدها رأت تلك الشجرة التي كانا يجلسان تحت ظلها، وقد شهدت تلك الشجرة على حبهما وأحلامها التي لم تتحقق.. فقد كان يقول لها: "سنجعل من بيتنا جنة، سنضحك طوال الوقت، سننجب طفلين ولد وبنت أو ولدين أو بنتين، المهم أن نكتفي بطفلين فقط حتى نستطيع أن نربيهم أفضل تربيه ونعلمهم أرقى تعليم، سأسمي البنت على اسمك حتى أنطق به طوال الوقت، سآتي من الشغل وأساعدك في إعداد الطعام، سأحتضنكِ وأضمكِ، لن أجعلكِ تبكين في أى يوم من الأيام، سآتي إليكِ بكل ما هو غالي، سأعمل على راحتك".. تذكرت كل هذا، فوضعت الأكياس من يدها وجلست على الرصيف، وأخذت تنظر إلى حذائها البالي التالف وكعوب قدميها المشققة والعلامات التي تركتها الأكياس على أصابع يدها إلى أن كادت تقطعها، تذكرت الماضي ونظرت إلى الواقع.. علمت أنه واقع كافر، وأن كل ما كانت تتخيله هي وحبيبها ما هو إلا وهم صنعته المشاعر والحب والاشتياق الذي كان بينهم، وتساقطت دموعها رغمًا عنها، فمسحتها بطرف طرحتها وقامت محدثةً نفسها "أما أقوم أروح عشان ألحق أطبخ للعيال".

أخذ ينظر إلى جميع المحلات ويبحث عن أرخص سعر وأعلى خامة، ويهرول إذا وجد لافته مكتوب عليها " أوكازيونات.. خصم يصل إلى ٥٠%، أراد شراء حذاء لنفسه، ولكنه تذكر حذاء زوجته البالي، والمئات التي يجب أن يدفعها لدرس الكيمياء الخصوصي و"تيشرت الألعاب" الذي يريده ابنه الأصغر، بالإضافه إلى أنه يريد أن يدخل البيت "بحاجه حلوه".. شعر أنها تكاد تكون عملية رياضية معقدة، يعجز الخوارزمي عن حلها، وأثناء سيره ومشاهدته للمحلات دون شراء، تذكر الماضي وتذكر أيام الرومانسية والكلام المعسول والنظرات المتبادلة، تذكر وعوده لها بأنه سيريحها وسيأتي لها بكل ما تريد، تذكر أنه كان يريد إسعادها بأي شكل، كان يتخيل نفسه واقفًا معها في المطبخ، يُعد معها الطعام، وينظر في عينها ويقبل يديها، ويأكلان سويًا فيطعمها بيده ويبتسم إليها قائلا: "ربنا يخليكى ليا ولا يحرمني منك أبدا" فتجيبه: "ولا يحرمني منك يا عمري"، ولكن الآن هو يأكل الكثير من الخبز والأرز كي يشبع، ويوفر اللحوم ليأكلها أولاده، أما هي فتتحجج بأنها "شبعانة.. ماليش نفس"، أو أكلت أى شيء في الطريق، حتى الطفلة التي أراد أن يسميها على اسمها لم يرزقهم الله بها .

وها هو يأتي من الشغل كالميت الذي يسير على قدمين، تحوم بعقله الكثير من المشاكل والهموم، فينسى وأحيانًا يتناسى أن يقول "شكرا" ويكتفي بالصمت، وبعدها يقف في الشرفة بمفرده مبتسمًا للقدر قائلا: "وأنا اللي كنت عايز أقول لها ربنا ما يحرمني منك"، استيقظ من أحلام الماضي على صوت بائع في محلٍ للأحذية قائلا له "عايز أى حاجة يا باشا؟".. نظر إليه الرجل وابتسم، ثم انصرف وقرر أن يشترى "تيشرت الألعاب" ويوفر ما يتبقى من أجل الدرس الخصوصي، وتناسى نفسه

وزوجته، وتناسى وعوده وأحلامه، وقتل خياله وعاش الواقع، فقام بشراء "اتنين كيلو موز عشان يفرح العيال".

اجتمعا على الغداء، فنظر كلٌ منهما في عين الآخر، فرأى الأحلام التي تبددت والوعود الهاوية والحياة المثالية التي كانا يتخيلانها، لم يكن لدى أي منهما شهيه للطعام، فقام وجلس في الصالة وأخذ يغير في قنوات التلفاز كي يشغل نفسه بأي شيء آخر، وانقطع الصمت بصوتها قائله: "خد ياواد طبق الرز بلبن ده طلعه فوق" فرغمًا عنه ابتسم، فكم يعشق رقه صوتها فقام وقال: "مش هتدوقينا الرز بلبن يا عسلية انتي؟".. ضحكت وتملكها الخجل.

وقالت: "اختشى يا راجل"

فقال لها:" أنا هدخل افرد ضهري.. ابقي دخليلى الطبق جوا وغمز بعينه".

فضحكت وتناست تعب اليوم، وكان هو في قمة سعادته، دخلت عليه ممسكةً بالطبق، فأخذه منها ووضعه بجانب الفراش وأمسك بيدها وقبلها وقال: "وحشتينى"، فتورد خداها وقالت: "وانت كمان"، فامسك بطبق الأرز بلبن وأخذ يطعمها، وتقاسما الطبق كما تقاسما الحياة طوال عمرهما.

ومر اليوم مثل باقي الأيام مابين "اقعد ذاكر يا واد" و "بابا أنا عايز حاجه حلوه" و "ماما اعمليلى سندويتش أي حاجه" و "حاضر بس اقعد انت ذاكر" و"أنا نفسي في آيس كريم" و "الكوتشي بتاعى اتقطع عايز انزل أصلحه" و "انقطع! ماانت بتمشي تشوط الزلط والطوب".. طلبات

لا تنتهي وكلمه "حاضر" أصبحت تُنطق لا إرادى، وفي الليل، استلقى كلٌ منهما على الفراش شبه الميت.. فأمسك كلٌ منهم بيدِ الآخر.. ومات موتته الصغرى.

وفي الصباح.. استيقظ كلٌ منهم والابتسامة تملأ وجهه.. لكي يبدأ مأساته ومعاناته من جديد.

تمت

بقلم / محمد الفلاح